الكتاب المدرسي وتكوين المعرفة

(الابستمولوجيا)

موريس شربل

مقدمة :

تهتم التربية النظامية ، شأنها شأن أيّ عمل انساني هادف ، بالوسائل اهتمامها بالاهداف ؛ فاختيار الوسائل المناسبة للأهداف من حيث طبيعتها ونوعيتها ، هو الضمانة لتحقيق النتائج المرغوبة في حياة الناشئة ، وفي طليعة الوسائل التي تساعد في تكوين المعرفة ، يأتي الكتاب المدرسي لأنه يبقى حتى الآن الوسيلة المفضّلة والأكثر انتشاراً في العالم أجمع .

تبنى المعرفة استناداً الى موقف أو مجال له زمان ومكان معينان ، يتفاعل فيه الفرد ويعيش مع عناصره المختلفة من أفراد وعلاقات وأشياء ، وتنشأ فيه استجابات وردود أفعال عدم توازن وتوازن ، نتيجة ما يحدث من مثيرات خلال عملية التفاعل ؛ فالفرد في حياته يمر بمواقف مختلفة يتفاعل بها ويؤدّي كل موقف الى موقف آخر كما يتأثر بما يسبقة من مواقف . وهو اذ ينتقل من موقف الى آخر لا ينقل الموقف أو يكتسبه ، بل يكتسب منه ما يستجيب اليه وما يؤثر فيه فيتعلمه نتيجة ما يحدث في سلوكه من تغييرات تتمثل في معارف واتجاهات ومهارات .

تُبنى المعرفة خلال نشاط الفرد وتفاعله مع بيئته ، ومن المواقف التي يتخذها ويعيشها مع الآخرين . وكل مفهوم يساهم في اعادة تنظيم المفاهيم التي تلي . من هنا تكون التربية اعادة بناء وتنظيم الخبرة بصورة تزيدها عمقاً وشمولاً كما انها تمكّن الفرد من المشاركة في البناء والتنظيم بغية توجيه الخبرات اللاحقة في الحياة .

بناء على هذه النظرة الحديثة التي أثارت سخطاً على الكتاب المدرسي عند الكثير من المربين وجعلتهم يطالبون بإلغائه ابتداء بالمربي الفرنسي رابليه «**Rabelais**» مروراً بمونتانيه وروسو .. حتى جون ديوي وجان بياجه . كلهم طالبوا ببناء المعرفة أو الخبرة من الحياة واللعب وابعاد الكتاب المدرسي على الأقل من المرحلة الابتدائية .

لكن بين التقليديين الذين يسجنون الولد بين دفتي الكتاب ، ويغرقونه في سيل من المعلومات التي تخنق مواهبه ، وبين المتجددين المتطرفين الذين ينادون بإلغاء الكتاب المدرسي واعتماد بناء الخبرة المباشرة عند الطفل ، نجد أنفسنا أمام الأمر الواقع اذ لا غنى عن الكتاب المدرسي مطلقاً كأمر واقع ، مع ذلك ينبغي أن نرمي بعيداً الكتب المدرسية الرديئة والتجارية ، أو تلك التي لا تتجدد ولا تأخذ بعين الاعتبار مراحل نموّ الطفل ومدى امكانياته في كل فترة زمنية أو مرحلة تعليمية .

١ – مصادر المعرفة وتكوينها حسب آراء المربي الكبير جان بياجه .

تتكون معرفة الانسان من علاقته بالبيئة الاجتماعية المادية أي من عالم الناس والأشياء (الخبرة) . ولكي يحصل التعلم بشكله الأفضل ينبغي وجود انسان سويّ يتفاعل مع البيئة . يعني بياجه بالانسان السويّ الانسان الذي تمّت عنده عملية التوازن والموازنة ، أي الفرد الذي يستطيع تنظيم المعلومات المتناثرة في نظام معرفي غير متناقض . لا تحصل هذه الموازنة نتيجة ما يراه الانسان بل تساعده على فهم ما يراه . انطلاقاً من هذه القدرة التي تنبع من الوراثة والتكوين البيولوجي يستطيع الفرد تدريجياً الاستدلال على الكيفية التي يجب أن تكون عليها الأمور في محيطه .

تبدأ عملية التوازن ببعض الاضطراب فيشعر الانسان أنَّ هناك شيئاً ما ليس على ما يرام ، نأخذ مثلاً على ذلك : الفتاة التي تتنبأ بأنّ الماء سيصل الى المستوى نفسه في وعاءين أحدهما عريض القاعدة والآخر رفيع لكمية من السوائل متعادلة تتفاجأ الفتاة عندما ترى ان مستوى السائل في الانبوب الرفيع قد ارتفع أكثر من الأنبوب العريض ، تصاب بالانزعاج – هذا ما نسميه عدم التوازن أو الصراع بين ما هو متوقع وما نشاهده أمامنا – هذا النوع من الاضطراب يحاول إيجاد بعض التنظيمات من أجل التخفيف من الانزعاج . ثم ان الفتاة تحاول اعادة الاختبار عدة مرات لتتأكد من نتيجته . هكذا تحاول السعي لمعرفة الأسباب باندفاع داخلي وبعد اكتساب العديد من الخبرات تبدأ في فهم السبب فيحصل التكيف الذي يقوم على عمليتَي الاستيعاب والملاءمة أو التلاؤم ومن خلالهما تم أفضل عملية تعلّم يمكن أن تحصل .

ان الاستيعاب والتلاؤم «assimilation et accomodation» هما المتغيران الوظيفيان الظاهران في كل فعل ذكاء ... في الرؤى التكوينية حيث يقول بياجه «لا وجود لبنية بدون تكوين ولا تكوين بدون بنية . وبما أنّ هناك استمرارية من البيولوجي الى السيكولوجي ينبغي اذاً البدء بطرق واتباع سلسلة تطورات الى ان نصل الى حالة التوازن النهائي» لذلك اضطر بياجه الى دراسة البنيات المتتابعة فانطلق من البنيات الأساسية للمولود الجديد . وفي هذا المجال اعتبر أن عملية التكيف التي يحصل التعلم بواسطتها هي نوع من التنسيق بين الاستيعاب والتلاؤم .

حدد بياجه نوعين من المعرفة .

(١) المعرفة الشكلية – الصورية . وتقع هذه بين ما هو محسوس خارجي وبين ما هو مجرد في الذهن . وهي تتبع مبدأ المثيرات فتعتمد على التعرف الى الشكل العام للمثيرات ، من هنا كان اسمها المعرفة الشكلية . هذه المعرفة لا تنبع من الحكم العقلي .

(٢) المعرفة الاجرائية وتنبع من الحكم العقلي وتتوصل الى الاستدلال في أيّ مستوى من المستويات . تهتم المعرفة الاجرائية بالكيفية التي تتغير بها الأشياء أي بانتقالها من حالتها السابقة الى حالتها الراهنة . أما المعرفة الشكلية فانها تهتم بالأشياء في حالتها الساكنة وخلال لحظة زمنية ثابتة .

تزداد قدرة الطفل ، مع مرور الزمن ، على استخدام المعرفة الاجرائية تاركاً وراءه جوانب المعرفة الشكلية التي سادت في حياته الأولى . وحسب نظرية بياجه هناك أربع مراحل رئيسية من مراحل التطور المعرفي عند الانسان :

١ – الفترة الحسية – الحركية يتعلم فيها الطفل فكرة استمرارية الاشياء وفكرة تنظيمها في العالم الطبيعي .

٢ – الفترة ما قبل الاجرائية – يبدأ الأطفال خلالها معرفة الأشياء في صورها الرمزية ويصبحون على وعي أكثر بتلك التي عرفوها في المرحلة الحسية الحركية .

٣ – الفترة الاجرائية المحسوسة . وفيها يطوّر الأطفال قدراتهم على التفكير الاستدلالي لكن هذا الاستدلال يبقى محدوداً ضمن نطاق ما يشاهده الطفل في هذه السن ، لكنه لا يصل الى مستوى التجريد .

٤ – الفترة الرابعة وهي الفترة الاجرائية الصورية . يتوصل الأطفال خلالها الى الاستدلالات استناداً الى استدلالات أولية . وتتم البنيات تباعاً استناداً الى بعضها .

يمكننا تلخيص المبادئ التربوية عند بياجه في المجال التطبيقي كما يلي :

المبدأ الأول :

يجب أن يكون التعلم سياقا فعّالاً لأنَّ المعرفة الحقّ هي هيكل بناء وليست واجهة لهذا البناء . «ان الغاية القصوى لنظرية النمو الذهني هذه تكمن في اتاحة المجال للطفل كي يبني تعلمه بنفسه ، ولا نستطيع تنمية ذكائه بمجرد السرد الكلامي ...» لا يمكن اجراء فعل تربوي صحيح الاّ بوضع الطفل في موقف تعليمي حيث يقوم بنفسه بالتجريب والتلمس وبناء الخبرة ... حتى أولئك الذين يؤيدون الطريقة المبنية على أساس الاكتشاف لا يتوقعون الا اكتشاف ما يطلبه الكتاب أو المعلم من هؤلاء الأطفال .

المبدأ الثاني :

يتناول أهمية التفاعلات الاجتماعية التي تحصل بين الأطفال في المدرسة. فالنمو الذهني حسب رأي بياجه يتم بالتفاعل المستمر بين الأطفال وليس بين الأطفال والكبار فقط . بذلك يتم انطلاقه من «أنويته» son égocentrisme ويجعله يرى كل وجهات نظر محيطه . من هنا النصح باستخدام العمل الفريقي في الصف والمباحثة الجماعية بين الرفاق . فالتفاعلات الاجتماعية بين التلاميذ تشجعهم على تقريب وجهات النظر فيما بينهم ، لذلك ينبغي ممارستها بدل الاكتفاء بتشجيعها فقط .

المبدأ الثالث :

أفضلية الفعل الذهني المبني على الخبرة المباشرة أكثر من المفاهيم المكدسة التي تتلى كلامياً . فقد شدد كل من ألمي ورفاقه (١٩٦٦) ودور كورث (١٩٦٤) على أن للكلام أهميته ، انما يجب ألاّ يعمل على حساب الفكر. فالهدف الأساسي من التعلم هو التوصل الى التفكير العلمي السليم ، مع الاعتراف بأهمية القراءة والتعبير كوسيلة تعلّم . من المؤسف أن يصبح التعبير اللفظي غاية أساسية عند المربين وعند واضعي الكتب المدرسية بدل العمل على تنمية الفكر الاجرائي الحقيقي .

جاء على لسان بياجه حول التعلم الناشط في الموسوعة الفرنسية عام ١٩٣٥ «نلاحظ اتجاه كل من بستالونزي وفروبيل ومونتسوري وسوزان اسحق وغيرهم من الذين أيدوا الطرائق الناشطة في التعلم ، انهم سعوا الى تفاعل الطفل مع الأشياء أكثر مما أيدوا السماع الى معلم أو قراءة الكتب كي يحصل نمو في الذكاء .

خلاصة القول : «لقد كان الهدف من التعلم والتعليم جعل الطفل يتكيف مع البيئة الاجتماعية للكبار ، في حين أن هدف التعلم في معناه الواسع بالنسبة لبياجه ، يكمن في اجراء تحول في التكوين السيكوبيولوجي عند الطفل واتاحة الفرصة له بالتحرك في مجتمع يعطي امتيازات لبعض القيم الاجتماعية والذهنية والخلقية ، لكن بياجه يضيف موضحاً أن المجتمع يريد تربية الطفل على قيم اجتماعية وذهنية واخلاقية معينة أي قيم ومعارف مستهلكة ، لكن التربية المفضلة تريد خلق قيم ومعارف جديدة أي يجب اعادة اكتشاف العلوم لا مجرد القبول بها كما قال روسو. فالولد يتعود الخضوع على الصعيد الأخلاقي للكبار ويكرر المعلومات على الصعيدين المعرفي والذهني . أمّا بالنسبة لبياجه فالمدرسة يجب ألاّ تكون مدرسة طاعة بل مدرسة حرية وحكم ذاتي ومشاركة فعّالة .

تقنيات العمل التعليمي حسب أضواء نظريات بياجه تشدد من جهة على تعلم التقنيات أي الممارسة اليدوية والفكرية ومن ضمنها العلاقات الاجتماعية ، ومن جهة أخرى فكرة انتقال الأطفال من الخبرة الحسية الى الفكرة المجردة .

من هنا يكون الانطلاق نحو إيجاد كتب مدرسية مبنية على هذه الأسس آخذة بالاعتبار عملية تكوين المفاهيم ومن ثمَّ كيفية تكوين المعرفة في ذهن الانسان (الابستمولوجيا التكوينية) .

بناء على كل ذلك كيف يجب أن يكون الكتاب المدرسي كي يحقق هذه الأهداف؟

٢ – مميزات الكتب المتداولة في الأسواق اللبنانية ومدى قدرتها على تكوين المعرفة :

ان التضخم السريع لعدد المعلمين وعدد الطلاب ومتطلبات المدارس المتزايدة للحاجات الأساسية ، اضافة الى عدم توافر المسلمات الضرورية للعمل التربوي الصحيح ، وعدم اعداد المعلمين اعداداً كافياً يبقي الكتاب المدرسي محور عملية التعلم والتعليم واداة فعّالة لتحقيق معطيات المنهاج والأهداف التربوية .

رغم أننا نرى أنَّ هذه النظرة لا تزال أقرب الى التقليد منها الى التحديث ، فاننا مضطرون الى اعتمادها لعدم توفر الوسائل التعليمية الكافية ، الاّ ان الاتجاه الذي يسود مطلع الثمانينات من هذا القرن يميل الى جعل الكتاب المدرسي أشبه بنشاطات تطبيقية وتمارين عملية منه الى كتاب يجمع معارف الفكر البشري وينسقها ويبوبها بشكل منظم .

أما المواصفات التي نراها مناسبة للكتاب المدرسي ولواضعيه فهي :

١ – كل مؤلف كتب مدرسية يجب أن يكون مشبعاً بالنظريات التربوية الحديثة فتشكل عنده خلفية معرفية ترتكز الى أحدث ما توصلت اليه أبحاث علم النفس والتربية حول نمو الطفل وادراكه للمفاهيم ومدى استيعابه لها .

٢ – ينبغي أن تكون مفاهيم الكتاب الجيد كنتيجة حتمية لاعمال وتجارب وخبرات ونشاطات مستمدة من واقع الطفل وحياته البسيطة . كل ذلك يؤدّي الى تشويق ورغبة في التعلم ...

٣ – يجب أن يساهم الكتاب المدرسي في بناء الخبرات التعليمية والحياتية بالاضافة الى المهارات والمفاهيم والمعارف الأساسية للمادة الدراسية التي تكون نواة تهيئة للدراسة اللاحقة .

٤ – من واجب واضعي الكتاب المدرسي الأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين التلاميذ وقدراتهم ، وذلك بتدريج

التمارين والنشاطات ، بدءاً بالأسهل منها ، صعوداً نحو الأصعب . كما ينبغي تحليل المفاهيم الصعبة وتجزئتها ، ومن ثم بناؤها بطريقة سهلة المنال .

٥ – على واضعي الكتب المدرسية التوافق مع الأبعاد الأساسية لعملية التعلم وهي :

- البعد المنطقي للمادة وفيه قسمان :
التسلسل في التعليم ويعني تسلسل المواضيع بالنسبة لبعضها وتسلسل في الموضوع نفسه مثلاً : هذه الفكرة يجب ان تأتي قبل تلك نظراً لتكوينها ودخولها في المفاهيم اللاحقة . تزداد المعلومات عمقاً وكثافة وتوسيعاً كلما ارتفع التلميذ في السلم التعليمي .
- البعد السيكولوجي للمادة ، ويستند الى مفهوم الاستعداد حيث يكون المتعلم قادراً على متابعة مادة دراسية معينة فيشمل الاستعداد النضج الجسدي والعقلي والانفعالي والاجتماعي المناسب . وتؤمّن خبرات تعلّم سابقة ادراكات مفيدة للتعلم الجديد كما يؤمّن شعور بالرغبة والحاجة الى التعلم .

٦ – يجب ان يطّلع واضعو الكتاب المدرسي على مناهج كل مواد المرحلة لمختلف السنوات بشكل عام وعلى مناهج المواد القريبة من موضوع الكتاب بشكل خاص وذلك كي تتم عملية الربط بين بعضها .

٧ – في الطباعة ينبغي الاهتمام بمنظر الكتاب الخارجي وطريقة تبويبه ونوع الورق والرسوم التوضيحية التي تعتبر من صميم الوسائل الجاهزة بين يدي المعلّم ، كما يجب الاهتمام بالنصوص وطريقة عرض المادة والتطبيقات والرسوم ونوع الاختبارات والمراجعات وما الى ذلك .

٨ – يجب ان يلحق الكتاب المدرسي بوسائل تعليمية اضافية تابعة له كتقديم كتاب للمعلم يوضح طريقة التعليم وحل التمارين وما شابه اضافة الى بعض البطاقات اللازمة أحياناً أو اللافتات والخرائط وما الى ذلك ...

٩ – يجب ان تطابق دروس الكتاب المدرسي المنهاج الرسمي المقرر ، كما ينبغي ان تطابق التعابير المفاهيم المنويّ تدريسها والا يكون هناك التباس بينها خاصة في كتب الرياضيات والعلوم .

١٠ – استناداً الى الأبحاث التربوية الحديثة يجب ان تتدرج المفاهيم من النشاطات الحرّة اليدوية الحسية الى الاختبار والتجريب والتمثيل ومن ثم الى التعميم والتجريد .

١١ – يجب ان يدرك مؤلفو الكتب المدرسية ومعلمو المرحلة الابتدائية بشكل أساسي ان طريقة التفكير وفهم كل شاردة وواردة تمر في الصف ، هي في أساس بناء المفاهيم بشكلها الصحيح (مثلاً : التشديد على الخوارزميات في تعليم الرياضيات في المرحلة الابتدائية ...)

١٢ – ألاّ تكون طريقة الكتاب كثيرة التحديد مفروضة بشكل أساسي على المعلم كي يكون بمقدوره أن يكيفها لتناسب قدرات التلاميذ وميولهم وحاجاتهم كما يتوجب علينا أن ندرك أن الهدف الأساسي هو طرق التفكير السليم والتخطيط الهادف وليس مجرد الاجراء الآلي بالقياس بغية الوصول بأقرب طريق الى الجواب الصحيح .

٣ – الكتب المتداولة في لبنان وسبلها الى الابستمولوجيا .

١ – يمكن ان يضع المؤلفون الكتب على أساس تقليدي كما هو معروف سابقاً حيث تكون المعلومات والمعارف على أساس استنتاجات سريعة وحيث يكون الكتاب مجرد مجمّع معرفي يعود اليه كل من المعلم والتلميذ معاً ، وتكون نتيجته ان يحفظ التلميذ المعلومات غيباً ويجتاز صفوفه على هذا الأساس وبعد مدة وجيزة ينسى كل ما حفظه ...

٢ – توضع الكتب على أساس بطاقات يومية وهي عبارة عن كتب مطبوعة بشكل بطاقات جاهزة وكل درس يوزع يومياً بشكل بطاقة تكفي لحصة مدرسية واحدة . وقد طبقت هذه الطريقة في بعض المدارس الأجنبية في لبنان وكان لها تأثيرها الجيد في نفوس الطلاّب وبناء معارفهم .

٣ – وضع الكتب المدرسية مع وسائل ملحقة مباشرة . وفيه يتم وضع الكتب على أساس استخدام بعض الوسائل التربوية المعروفة . وكل كتاب يصل الى المدرسة مع الوسائل اللازمة لكل درس وطريقة استعمالها (مثل وضع كتب على أساس القطع المنطقية في الرياضيات وتجري النشاطات الحية كما يدرجها الكتاب...) ويكون لكل تلميذ خزانة يضع فيها وسائله الخاصة يستخدمها عند الحاجة .

٤ – تأليف الكُتب على أساس التعليم المبرمج وفي هذا التعليم تقسم المادة التعليمية الى أجزاء صغيرة وتعرض في الكتاب بشكل اطار وينتهي كل اطار بسؤال ويعتبر هذا السؤال بمثابة حافز . وبعد ان يحدد التلميذ الاجابة يسمح له بالاطلاع على الجواب

الصحيح فتكون امّا في صفحة لاحقة أو في نهاية الكتاب. وفي حال كانت اجابته صحيحة يحصل عنده نوع من التعزيز واذا لم يوفق بالاجابة فان البرنامج يوجهه الى ما يجب عمله قبل أنْ ينتقل الى مفهوم آخر. وقد طبّق هذا النوع في تعليم الرياضيات في بعض المدارس المهنية لسنوات خلت في لبنان.

- عدم وجود كتاب بالطرق المعروفة بل يقوم الطلاب بتوجيه من استاذهم بتحضير بطاقات يومية حسب التجارب والأعمال التي قاموا بها، يتمّ تنقيح هذه البطاقات بالتعاون مع بعض المشرفين وتُحذف المواضيع التي لا تهمّ التلاميذ أو يضاف اليها مواضيع أخرى. وبذلك يتوصل الأساتذة والطلاب والمشرفون الى وضع بطاقات لكل درس بطريقة ديناميكية تؤدي الى وضع كتاب في نهاية السنة الدراسية. وقد طبقت بعض المدارس الخاصة الأجنبية هذه الطريقة وهي فعلاً طريقة تساعد على الخلق والابداع من قبَل الطلاب.

من الأهمية بمكان الاّ ننسى دور المعلم في تفهمه لطريقة الكتاب المدرسي وتدريبه وقدرته على تطبيقه بشكل يؤدّي الى تحقيق أهداف المنهاج. كل ذلك يفرض اعداداً صالحاً للمعلمين واعادة تدريبهم مع كل المعطيات الجديدة كي يتمكنوا من مجاراة التطور والتغييرات الحاصلة في طرق التدريس وعلم النفس والتربية.

- بعض المدارس اعتمدت طرق بعض المربين الكبار وحاولت تطبيق ذلك فوصلت الى نتائج جيدة، مثل مدرسة ديكرولي ومونتسوري .... نلاحظ ان سبل المعرفة تبقى شبه تقليدية الاّ في بعض المدارس الضئيلة ويبقى الكتاب المدرسي مصدراً أساسياً للمعرفة، كما يبقى للذاكرة دور أساسي في نقل المعرفة الى ذهن الطفل وتبقى أهداف كبار المربين دون تحقيق، مثل: بناء الخبرة بالتعلم - تكوين المفاهيم - بناء المفاهيم - النماذج - التعليم الفريقي ...

٤ - فوائد الكتب المدرسية.

لقد شددنا على اعداد المعلم وتدريبه كي يضطلع بمسؤولياته اضطلاعاً جيداً ولا يكون عبداً للكتاب المدرسي مهما علا شأن مؤلفه واسلوبه وطريقته. فالمؤلف انسان ويجوز أن يخطئ من حيث لا يريد. على المعلم ان يحسن استعماله للكتاب ويدرك فوائده وأوقات الرجوع اليه وحسن النظر فيه لأخذ النشاطات والآراء المفيدة والابتعاد عن الخطأ غير المقصود وأهم فوائد الكتاب المدرسي هي:

١ - تأمين النشاطات والأفكار والنصوص الملائمة للدروس المطلوبة التي يرجع اليها المعلم في تحضير دروسه ويستوحي منها افكاراً جديدة توحي بنشاطات وتطبيقات جديدة.

٢ - يُعتبر الكتاب المدرسي مرجعاً للتمارين الشفهية والكتابية على حد سواء اذ يستند اليها المعلم في مرحلة التمرين والتدريب بعد استيعاب المفاهيم الأساسية كما يمكنه ان ينسج على منوالها وليس من الضروري استخدامها بكاملها.

٣ - الكتاب المدرسي مرجع أساسي للتلميذ في بيته للقيام بنشاطات مشابهة لتلك التي أجريت في الصف ولمراجعة المفاهيم والمعلومات التي تمّ استنتاجها مع المعلم.

٤ - يساعد الكتاب الطالب على مراجعة المعلومات عند الامتحانات أو في نهاية السنة الدراسية أو بعد ترك المدرسة أحياناً، فهو معلم صامت وعلى حد قول Duhamel «الكتاب هو اناء العبقرية البشرية».

٥ - للكتاب أثر بعيد في نفس التلميذ الذي يعود اليه كثيراً لذلك يجب ان تكون مواضيعه وامثلته وتمارينه مستمدّة من بيئة التلميذ ومجتمعه فيشعر بالروابط المثبتة بينه وبين مجتمعه وبذلك يزداد حبه لوطنه وإيمانه به ويتبلور تقديره له وتعلقه به. وهنا تكمن الفائدة الكبرى من الكتاب في التوجيه الوطني وبناء المواطن الصالح ....

٥ - اين الكتاب المدرسي من هذه المعايير وبصورة خاصة من مبادئ بياجه؟

سنقوم هنا بايضاح بعض المفاهيم انطلاقاً من مبادئ بياجه ونترك للقارئ الكريم مقارنة هذه المبادئ مع كل سلسلة كتب تقع بين يديه كي يتفهم فعلاً نوعية الكتاب المدرسي المتداول.

- هل يساعد الكتاب المدرسي الطفل أو فريقاً من الأطفال على الانخراط في موقف تعليمي حيث أن التفاعل المستمر بين الأطفال من جهة والمعلم من جهة أخرى يؤدّي الى تعلم صحيح؟

- هل يحصل الاكتشاف في الصف انطلاقاً من الكتاب المدرسي أو من نشاطات المعلم؟ ما هو نوع هذا الاكتشاف؟ هل ما يطلبه المعلم أو الكتاب أو ان هناك اكتشافاً جديداً يحصل؟

- هل ان الكتاب المدرسي على اختلاف انواعه في الساحة اللبنانية يمارس التفاعلات الاجتماعية بين التلاميذ ويوجه عملها .

- هل تساعد نظُم التعليم في لبنان والكتب المدرسية المستخدمة على اطلاق الطفل من «انويته» أم تزيدها وتنمي الأنانية الفردية ؟ ما قيمة ذلك على صعيد التربية الوطنية ؟

- هل يساعد الكتاب المدرسي الطفل ويدرّبه على الاستماع الى وجهات نظر رفاقه ويضطر أحياناً الى اقناعهم أو الاقتناع بآرائهم ... هل يوجهه الى ذلك ؟

- اذا ذكرت بعض الكتب أو شجعت العمل الفريقي فهل ينفذ ذلك عملياً ؟ ما فائدة العمل الفريقي على صعيد الانعاش الاجتماعي ؟

- هل يتمّ الفعل الذهني أو بناء المفهوم على أساس الخبرة المباشرة أم ان المفاهيم تكدّس في الكتب وتنمّق بالخطوط والألوان وما على المدرسين سوى جعل التلاميذ يكررونها عن ظهر قلبهم .

- هل يساعد الكتاب المدرسي على اتباع سُبُل التفكير السليم رغم تعدد سلاسل الكتب وانتشارها بشكل واسع في لبنان؟ هل هناك تصنيف للأهداف السلوكية المطلوبة ؟

- هل وُضع كتاب يساعد على تنمية الذكاء عند الطفل أو يساعد على الاكتشاف والابداع ام اننا مضطرون دائماً الى تكرار ما قاله غيرنا ...

- في خلاصة المبدأ الثالث يقول بياجه : التكيف مع البيئة ليس خضوعاً لها لا أخلاقياً ولا ذهنياً انما تنمية ذكاء الطفل كي يتفاعل بشكل ذكي مع مجتمع يحمل امتيازات اخلاقية وذهنية معينة . فهل سعت كتب الاخلاق والتربية المدنية أو غيرها الى وضع الأطفال في موقف حرج ومناقشته كي يتم التوصل الى موقف اخلاقي معين من قبَل الأطفال مباشرة بما في ذلك تأثير امتيازات البيئة ؟...

- أين كتبنا المدرسية من تنمية المهارات اليدوية وممارسة التقنيات العملية والفكرية ؟...

خلاصة : ليس بوسعنا هنا تناول كل كتاب أو سلسلة كتب ونقدها بالتفصيل ، انما اكتفينا بعرض هذه الاسئلة كخلاصة مقارنة مع مبادئ الفكر التربويّ عند بياجه والابستمولوجيا التكوينية ؛ ونترك المجال امام كل مربٍّ أو مسؤول أو أب كي يقوم بالمقارنة مع الكتب المتداولة بين يديه أو يدَي تلاميذه أو أولاده ويعطي حكمه بنفسه ....

المراجـع :

١ - التطور المعرفي عند بياجه - موريس شربل = كتاب عن جان بياجه لم ينشر بعد .

٢ - كتب بياجه المختلفة - وبصورة خاصة La naissance de l'intelligence.

٣ - Traduit de l'americain M. Schwebel et J. Raph, Piaget à à l'école Coll. G. Paris 1976.

٤ - مقررات دور المعلمين والمعلمات في لبنان وبصورة خاصة مقرر تدريس الرياضيات وتدريس العلوم .

